القضيةُ الفلسطينيةُ في الشّعر العامِلي المعاصر

طالب الدكتوراه هادي برومندمهر
قسم اللغة العربية وآدابها ، فرع آبادان ، جامعة آزاد الإسلامية آبادان ، إيران
brumand.hadi@yahoo.com
الدكتور عبدالرضا عطاشي الأستاذ المشارك (الكاتب المسؤول)
عضو الهيئة العلمية في قسم اللغة العربية وآدابها، فرع آبادان، جامعة آزاد الإسلامية آبادان، ايران
dolrezaattashi2014@gmail.com

The Palestinian Case in Contemporary Ameli's Poetry

PHD student Hadi Boroumand Mehr
Department of Arabic Language and Literature , Abadan Branch , Islamic Azad University Abadan , Iran
Dr. Abd Al-Redha Atashi , Associate Professor (Responsible Writer)
Member of the Academic Staff in the Department of Arabic Language and Literature , Abadan Branch , Islamic Azad University Abadan , Iran

الملخص:-

المقاومة العربية ضد الاغتصاب والاحتلال الصهيوني لفلسطين والأراضي العربية المحتلة، هي الفعل النضالي الذي إزدهر وتصاعد به النضال العربي، وهي القمة الكفاحية التي أعطت للإنسان العربي أن يقول إنّي عربي ويفاخر. وقد كتب الكثير عن الأدب المقاومة هذا، وسيكتب الكثير عنه أيضا، وفي هذا البحث أقدم خطوطاً مجملة لهذا عن لسان العامليين.

قضية فلسطين هي الموضوع الأول الذي استأثر بالقدر الاكبر من اهتمام الشاعر العاملي، ولا يكاد يخلو ديوان شاعر عاملي من نماذج شعرية فلسطينية، وبعضهم خصص دواوين لهذه القضية المصيرية. والمادة الشعرية لدى هؤلاء الشعراء كثيرة في كمها، متنوعة في كيفها، كثيرة في شعرائها، واكبت مسيرة القضية منذ المأساة وتواصلت عبر أحداث الانتفاضة، ولا تزال حتى يومنا هذا تحثّ أحيانا، وتندب أحيانا أخرى.

الكلمات المفتاحية: الأدب العاملي، الشعر العاملي، القضية الفلسطينية، النكبة، الشعر المقاوم.

Abstract:-

The Arab resistance against the rape and Zionist occupation of Palestine and the occupied Arab territories is the struggle that flourished and escalated the Arab struggle, the struggle that gave the Arab people to say that I am Arab and proud. Much has been written about resistance literature and will be written in the future, In this article, I will take a look at the language of the poets of Jabal-amel.

The Palestinian issue is the first issue to a large extent aroused by the poets of Jebel Amel, And no poet can find a factor that has not dealt with this issue and has devolved jurisdictions in this field. And the poetic elements of these poets are in great quantity and in great variety and quality. Addressing this issue began at the beginning of the calamity and reached the intifada. And it has always been their focus.

Key words: International Literature, International Poetry, The Palestinian Question, The Nakba, Resistant Poetry.

المقدمة:ـ

إنّ إلتزام الشعر العاملي قضايا الناس، العامة والخاصّة، جَعل لَهُ حُضوراً في الأوساط الشعبية والأدبية والسياسية. كما تغلغل إلى وجدان الناس، وغدا حافزاً على تغيير الواقع المؤلم والمخيم على حياتهم. فاليقظة العاملية الإجتماعية والسياسية والثقافية مدينةٌ، إلى حدّ بعيد، للشعر العاملي.

وقد سلّطنا الضوء على رفض الشعراء الموضوعات التقليدية الموروثة التي إضمحلّت نتيجة عدم استجابتها للحاجات المتطوّرة، وعلى تقبّل الموضوعات القومية وقضايا المجتمع الملّحة. كما كلنا نعلم أن الشعر العاملي جاء حلقةً في سلسلة الشعر العربي، مع تميزه بخصائص مستمدّةٍ مِن الواقع البيئي، ومتأثّرةٍ بالمحيط الذي نشأ فيه.

إستإثرت القضية الفلسطينية باهتمام شعراء وادباء جبل عامل فأعطوها كامل عنايتهم وكبير إهتمامهم وذلك لاسباب مختلفة منها: ارتباط العامليين التاريخي الوثيق بفلسطين قومياً ودينياً وإجتماعياً وجغرافيا فجبل عامل وفلسطين امتداد طبيعي يكمل كل منها الآخر بلا فواصل طبيعية وكلاهما جزء من بلاد الشام التي هي الأخرى جزء من الأمة العربية. وقد تأثر العامليون تأثيرا كبيراً بأحداث فلسطين واكتووا بنار الانكليز والصهاينة بنفس القدر الذي اكتوى به اخوانهم الفلسطينيون فكانت المشاركة كاملة وعلى هذا الأساس نجد أن العامليين قد غاصوا إلى أعماق القضية الفلسطينية وناظلوا مع الفلسطينيين منذ أن ذرت المشكلة قرأناها في أواسط الثلاثينيات بل وقبل ذلك منذ وعد بلفور المشؤوم.

في الحقيقة منذ حلّت نكبة فلسطين عام (١٩٤٨م) دخلت حياة العرب بل الأمة الاسلامية برمّتها في إطار خاص وأصبح الشعر مُعبّراً عن العصر وأحداثه وما ألمَّ بالامة العربية والعربية من فواجع ونكبات في مختلف الشؤون، وما نلاحظه من خصوصيات للشعر العاملي ما هي الا الانعكاس لتلك الحوادث والجريمة التي ارتكبها الاستعمار والصهيونية لإبادة شعب أعزل واغتصاب وطنه لجعلها وطناً لخليط من الصهاينة غرباء عنه. وبالفعل استطاع الشعر العاملي أن يبث الوعي، ويفضح العدو، ويحرك عزائم الشعب العربي، ويكشف عن النوايا الخبيثة للأعداء، ويشق طريق النضال، ومواجهة الاستعمار بالتعبير الصادق الذي لازم المدفع والرشاش في كثير من المواقف.

١ـ الشعر العاملي المقاوم.

الشعر العاملي المقاوم، ((هو الشعر الذي يعبّر بلغته الفنية عن التجربة العاملية المميزة، فيصدر رافضاً مختلف اشكال الظلم ساعياً إلى الحربة والعدالة، ورائياً إلى الأشياء والامور على حقيقتها ونافذاً إلى جوهرها محاولاً الكشف عنها وايصالها إلى الآخرين حالات وأحاسيس بغية إغناء وعيهم وتحريضهم وقودهم إلى الفعل)) (زرافط، ١٤٠٦ش،١٣٧-١٤٨).

ويمكن القول، بشكل عام، ان الشعراء العامليين كانوا يطلون على عالمهم بعين من رضع من ثدي التجربة الحسينية. يرسم محمد علي الحوماني، على سبيل المثال، صورة للتاريخ العربي الحديث ولساسته فيقول:

كـــلُّ يـــومٍ يطْغَـــي يريـــدُ وينـــهارُ حســـــين بِســـــيفهِ مَطعونَـــــا

وَرثَ الحكـــمُ ساســـةَ العـــربِ عنـــه وَثبّتـــــوا شـــــعاره الملعُونَـــــا

(الحوماني، ١٩٥٠: ١٤٥)

بهذه الرؤية الواضحة العميقة اطل الشعراء العامليون على قضايا أمتهم ووطنهم وواكبوا سير تاريخهم وشاركوا في صنع أحداثه. وإن كان تقريرنا هذا يحتاج إلى نماذج دالة، فإننا سوف نختار اليسير الدّال منها، على المستويين: الوطني والقومي.

١-١- على المستوى الوطني

يطل الشعراء العامليون على المسألة الوطنية برؤية ترفض كل دخيل. وتتحول بنات الاقلام لديهم إلى حمم عندما يدق الدخيل، رتاج الباب، وهذا ما يشعر به بولس سلامة فيقول:

حمـــمٌ تطـــايرُ مَـــن يراعـــي كلّمـــا دَقَّ الـــدخيلُ علـــى رتـــاجِ البـــابِ

(بولس سلامة، ١٩٥٢: ١٧٥)

إنطلاقاً من هذه الرؤية، نظر الشعراء العامليون إلى المسألة اللبنانية، ورأوا إليها بوضوح تام. منذ البدايات، كان جلياً أمامهم أن الاستقلال الذي حصل عليه اللبنانيون من الاستعمار الفرنسي لم يكن سوي إستقلال شكلي، أو هو((الكنز)) الذي وضعته فرنسا بأيدي ((المارونية السياسية))، ورأوا أن ما رافق نيل الإستقلال من أحداث، كالإعتقالات

وغيرها... لم يكن سوي مسرحية الغرض منها ((تعميد)) بعض الرجالات أبطالاً وطنيين، وهؤلاء الذين أراد أن ينصبَّهم حكاماً على أثر رحيله الشكلي؛ نقرأ لموسي الزين شرارة قوله في هذا الصدد:

سَمـــوْهُم أبطـــالَ تشـــرينِ فَقُـــلْ ... وَأنـــا كـــذاك إذا سُـــئلت أقـــولُ

تشـــرينُ شـــهر الكـــذبِ، حـــين دَعـــوهم ... الأبطـــالُ في لبنـــان لا أبريـــل

(موسى الزين شرارة، ٢٠٠١: ١٨٥)

ويعيد عبدالمطلب الأمين الموقف نفسه، مضيفاً أن الوحي الفرنسي لا ينفك ينزل، وما حدث فعلاً إن هو إلا تغير في الأسماء ليس إلا، نقرأ من قوله:

لا كـــانَ تشـــرينُ مِـــن بـــين الشـــهورِ ولا ... تلـــك الخرافـــةِ عـــن أبطـــالِ تشـــرين

فســـجن يـــومينِ في تشـــرينِ أورثنـــا ... تزويـــرَ أيـــار واســـتهتارَ كـــانونَ

قـد كـانَ يصـدرُ عـن ((كارتـل)) وحـيهم ... فصـارَ يصـدرُ عَـن ((جـيمس)) و((جـون))

(الأمين، عبدالمطلب، لاتا: ٢٢٨)

ثم يرى الشعراء العامليون إلى الأسس التي بنيت عليها دولة الاستقلال فيجدونها واهية، لأنها تقوم على قهر فئة لفئة، ويؤكدون أن هذه الأسس لا شك سوف تنهار، ويرونَ أن من يبني وطنه على مثل هذه الاسس الواهية هو دخيل محلي لا يختلف عن الدخيل الأجنبي، فكل منهما لا يهتم لا بوحدة البلاد ولا بتطورها وإزدهارها. نقرأ لموسي الزين شرارة بعض قوله:

مهـــلاً علـــيكم، إنّ ملكـــاً أسّـــهُ ... قَهـــر الخُصـــومِ وكيـــدَهم ســـيزولُ

ســـادَتْ بهـــا الفَوضـــى فـــلا قانونَنـــا ... يحمـــي الحقـــوقَ ولا القضـــاءُ عـــدولُ

كنـــا قَـــديماً في دخيـــلِ واحـــدٍ ... واليـــوم كـــلّ الحـــاكمينَ دخيـــلُ

(موسى الزين، السابق: ٢١٥)

أدرك الشعراء العامليون أن من واجبهم الكشف والتحريض وأن ليس من حق يعطي لمستسلم. وفي سبيل الكشف والتحريض، قاموا بإيضاح طبيعة العلاقة التي تربط بين الجبلين: جبل لبنان وجبل عامل، وحقيقة ما يمارس بقول الشيخ عبدالحسين صادق، في هذا الصدد:

الأمـــلُ للبنـــان وهـــو الصـــغيرُ ويفي عامـــلِ لم يـــزلْ يرضـــعُ
أتيـــت بهـــا أي اعجوبـــة بهـــا جبـــل جـــبلاً يبلـــعُ

(صادق، ١٩٦٥: ١١٢)

وفي توجه آخر، توجه يرى إلى طبيعة النظام ومظاهر سياسته، فيبسطها على حقيقتها ويعريها، نشأت ونمت مدرسة جديدة كل الجدة. وقد عمدت هذه المدرسة إلى اسلوب شعري نسميه أسلوب الهجاء السياسي الاجتماعي الساخر، وهو((أسلوب بسيط العبارة عميق الفكرة كاشف محرِّض ساخر، يرمي إلى التقويم والتغيير وبناء الوطن على أسس سليمة))(عبدالمجيد زراقط: ١٤٩)، وهذا الهجاء كان يتناول مختلف مظاهر الفساد وعلى مختلف المستويات. ونذكر، هنا، على سبيل المثال، ديواني الشاعر محمد علي الحوماني: ((فلان)) و((نقد السائس والمسوس)). وأن ديوانه الاول صودر وحوكم صاحبه ونفي إلى أربد.

والواقع أن النماذج في هذا المجال كثيرة، ونكتفي هنا بقراءة اليسير منها. يقول فؤاد جرداق:

مـــاذا أقـــولُ بمـــوطنٍ حُكامـــه طلامـــه ورئيســـه مرؤوســـهُ
وزراؤُه أوزارُه وَرجالُـــــــــــه أصـــلالُه والمومســـات تسوسُـــه

(فؤادجرداق، ١٩٥٦: ٥٢)

ويقول محمد نجيب مروة:

أرَى الحُكـــام طُـــرّا وَالرّعايـــا جَميعـــاً بـــينَ مرشـــي وراشِـــي
أربـــابُ الحكومـــةِ لم غـــدَوتم تقـــودونَ الـــوَرى قـــودَ المواشـــي

(مروة،:٢٠٠١: ٧٨)

ويلتفت الشعراء العامليون إلى فئة أخرى من الزعماء، وهي فئة العلماء: (رجال-الدين)، فيحددون ما يجب أن يكون عليه العالم، فهذا الشيخ محمد حسين شمس‌الدين، وهو أحد العلماء البارزين، ينفي صفة العالم عن:

مَـــنْ كانـــت هِمتَـــه الـــدّنيا وَزخرفُهـــا وَلم يكـــنْ عـــامِلاً لِلعلـــمِ في الـــدّينِ

(شمس‌الدين، ١٩٩٦: ١٥٢)

على المستوى القومي:

عانت منطقة جبل عامل، في عهد الاتراك، ما لم تعانه منطقة أخرى. وقد صوّر الشعراء العامليون مختلف مظاهر الظلم والاضطهاد، وما أدي إليه هذا من فقر. فيقول الشيخ على مهدي شمس الدين عن ((العشارين)).

إذا أتَـى زمـن ((العشـارين)) خِلّتـهم قطـاط مسـغبةٌ خفـت إلى فـارِ

(شمس الدين، ١٩٨٠: ١١٢)

ويقول عن الفقر الذي أصاب الناس بفعل ممارسة هذه السياسة: سياسة ((القط والفأر)):

قـومٌ إذا هَمّـوا بغسـل ثيـابِهم لَبسـوا البيـوتَ وزوّروا الابْوابَـا

(السابق: ١٥٢)

إزاء هذا الواقع، رأي الشعراء العامليون إن لا مفر من الثورة والنهوض يستنكر الشيخ محمدحسين شمس الدين هذا الواقع ويصرخ بقومه:

إلى مَـتى نَومـاً علـى الضّـيمِ فَقُـم مُنتـهزاً في الـدّهرِ فرصـةُ الرّقـي

(شمس‌الدين، محمدحسين، ١٩٦٥: ١٤٧)

ويدعوا محمد نجيب مروة للنهوض والثورة المسلحة:

اَلا فليفـق بعـدَ الرّقـادِ وينـثني إلى الحـربِ مـن غلمـانكم كـل نـائم

فحـتى مَـتى هـذا القُعـود وقـد شـقت بنـوالترك مـن اوداجكـم كـل صـارم

(مروة، ٢٠٠١: ٢١٤)

وواكب الشعراء العامليون الأحداث، فكانت المناسبات العربية كلها مناسبات عاملية، فمن معركة ميسلون إلى ثورة ١٩٢٠م إلى معارك الاستقلال وقضية فلسطين وثورة الجزائر وثورة ١٩٥٢م في مصر والعدوان الثلاثي ١٩٥٦ ... ألخ

يوم معركة ميسلون ترد الأخبار إلى جبل عامل فيأسي أبناؤه وينظرون إلى يوم لا يكون العرب بعده نيام. ومما قيل في هذه المناسبة قصيدة طويلة للشيخ شمس‌الدين محمد نقرأ منها:

.. يـا يـومَ وقعـةِ ميسـلون كـم جـوى ... لـــك في الحَشـــا لا تنطفـــي وضـــرام

.. فلتبكينـــــك أمـــــةٌ ناصـــــحتها ... وينصـــحُها اســـتعذبت كـــأس حمـــام

لا يـــذهبنّ دَمـــك الحـــرامُ مضـــيعا ... فـــالعرب بعـــدك عنـــه غـــير نيـــام

(شمس الدين، السابق: ٢٨٧)

وعندما تبدأ المعركة ويضرب الفرنسيون أحياء دمشق، يقف الشعراء العامليون فيصرخون بوجه الظلم ويدعون إلى وحدة وطنية لمواجهة المستعمر، فمما يقوله الحوماني في هذا الصدد:

شـــعبان مظلـــوم وآخـــر ظـــالم ... ظفـــرت يـــداه بـــه فـــأين الـــراحم

باســـم المســـيح وباســـم أحمـــد كبّـــرت ... تحـــت البنـــود قلانـــس وعمـــائم

(الحوماني، ١٩٥٠: ٢٢٩)

أما النموذج الآخر للمحاولات العامليين في هذه المستوى، إهتمامهم الخاصة حول قضية فلسطين، التي نشيرُ اليهم في هذا البحث ونقرأ بعض النماذج منه خلال أشعارهم القيمة.

فلسطين في الشعر العاملي المعاصر

احتلّت القضية الفلسطينية، مكانَ الصدراة في القصائد العاملية المعاصرة، وتكفي مراجعة الدواوين الشعرية المطبوعة والمخطوطة لاستنتاج هذا الأمر بسهولة، ومما يعزّز هذا التوجهُ تلك المجموعات الشعرية المُخَصّصة بالكامل لهذه القضية المُقدسة، ونذكر منها: ديوان ((الفلسطينيات)) للشاعر الشيخ سليمان ظاهر، و((مذكرات لاجئة)) للشاعرة سكنة العبدالله، ومَلحمة ((فلسطين وأخواتها)) للشاعر الملحمي بولس سلامة، فضلاً عن عشرات القصائد التي تتمحور حول القضية الفلسطينية.

ولا نبالغ إذ قلنا: لم تخل قصيدة عاملية من ذكر لقضية الشعب الفلسطيني ومأساته، وضياع حقّه المغتصب، دعت تلك القصائد إلى إستنهاض الهمم لإزالة وصمة العار التي لحقت بالعرب من جراء تخاذلهم، وتبعثر صفوفهم من جهة، وسكوتهم على الظلم والهوان من جهة أخرى. لقد أثار الغزو الصهيوني لفلسطين حمية الشعراء العامليين

وعنفوانهم العروبي، فشهروا سلاحهم الشعري، من خلال أقلامهم الثائرة،مسطّرين مواقف السخط على الحلفاء الذين خدعوا العرب بزيف وعودهم، ومهّدوا السبيل للعصابات الصهيونية لإقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين وتشريد أهلها.

بعد هزيمة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧،ولدت قصائد عاملية كانت((حفيدة الثكل واليتم والألم والجراح، نفضت يديها من القماط، ونهضت مرة واحدة، تمضي في عصامية جريئة، لا يمتقع وجهها من خوف، ولا يرهق كاهلها ذلّ التماس)). (العرفان، العددان١و٢، المجلد ٧٩) هنا، نحاول إزاء قضية فلسطين، نختار نماذج تشير إلى مواقف الشعراء العامليين منها ورؤيتهم اليها.

قصائد شاعرة سكنة العبدالله

من أبرز قصائدها حول هذه القضية، هي مجموعة((مذكرات لاجئة)). تتحدث الشاعرة عن العصابات الصهيونية التي اغتصبت الوطن السلّيب، وطاردت السكان، وارتكبت المجازر بوحشية، وأحرقت الزرع، وهدّمت البيوت، ونشرت الإرهاب والرعب في المدن والقري الفلسطينية. من قصيدة ((الرعب والرحيل)) نقرأ هذه الأبيات:

أتي في الليل شدادٌ مِنَ الـ ... آفاق فاستَولوا على البَيدَر
عِصاباتٌ مِن الأمصار ... تَروي حَقدَها تثأَر
تَهاجُمَنا بِعُقرِ الدارِ ... تُلقي الرّعبَ أهوالا
تُطارِدُ إخوتي الصّبيانَ ... تَستعدي على أمي
تَفتَشُ عَن سلاحِ أبي ....
وتَحرُقُ ما زرعناهُ ... وتهدمُ ما بَنَيناهُ
ونَشرَدُ في دروبِ الرّعْـ ... بِ أفواجاً ووِحدانا...

هنا الدربُ الذي كنّا سلكناهُ

(سكنة العبدالله، لاتا، ١٧٨)

بعد تتحدث الشاعرة في قصيدة أخرى عن((الدفتر الأصفر))،تلك الأوراق الصفراء،

التي أعطتها ((وكالة غوث اللاجئين))للشعب الفلسطيني المشرّد، هي وصمة عار، لأنها لا تمثّل أواقا ثبوتية صحيحة،فهي تحمل الإسم دون الدار، وتمنح حاملها عيشا رخيصا، بل فتاة موائد الآخرين، إذ يشعر المرء بالذل والهوان والحتقار، هذا ((الدفتر))هو أوراق الأذلاّء، وليس هوية للأحرار، ثم تتابع الشاعرة قائلة:

وَتضحَك باحتضارِ الزّرعِ ... يقسُوصوتُها تَزأر

هناك وكالةُ لَلغَوثِ ... تُدعي ((مخزنُ التموين))

فيها تَمنحُ الصّدقات ... فيها تُمضغُ العبرات

فيها نَرتوي مِن ذُلّنا أكثر

هويتُنا مواسِمُنا حصا ... دُ العُمرِ والأعْوام

نَفعُ التربه العَذراء ... وَوَصمةُ عارنا السوداء

هذا الدّفتر الأصفر

(السابق: ٢٥٧)

وتسخر الشاعرة من مجلس الأمن وهيئة الأمم،فهناك شريعة الغاب، إذ يتحكم القوي بالضعيف، وتفترس الذئاب الغنم، وتقف الدولة((العملاق))خلف الدولة ((القزم)):

عَرَفْنا هيئةَ الأمَمِ ... قصاصاتٌ مِن الاوراقِ

في الأدراجِ والظلمِ

عرفنا شرعةَ الغاباتِ ... حكمُ الذئبِ بالغَنَمِ

عَرَفناهُم ! حماةُ الغدير ... عَونَ البَاعةِ الخدمِ

عَرفْنا الدولةَ العملاق! ... خَلف الدّولةِ القَزمِ

(سكنة العبدالله : ٣٨٧)

ونختم وقفتنا مع الشاعرة في رحاب القدس، إذ نستشيط غضبا لما آلت إليه المدينة العربية المقدسة الأسيرة، التي تباع بالمزاد في سوق النخاسة، ظائمة، لم تبلّل لهاثها نقطة ماء، فالوعد برق خلّب لا يحمل المطر. وستبقى القدس جرحا نازفا في خاصرة الوطن العربي حتى يتمّ تحريرها. تعالوا ننشد معا لعروس المدائن ليلة الميلاد، وفي الإسراء والمعراج، ونجمع الورود الحمراء لنكلّل بها هامات الأبطال المقاومين يوم النصر:

إذا ما أبحرت عيناك في نفسي

ومن عنقي تدلّيت على حبل من الأوتار

غمستك ريشة في القلب

واندلعت لهيبا أحرفا كالنار

سأنفذ من عيون الجند والحرس

وأحملك على قيثار

سأزرعك على قطبين، قطب الريح والشمس

مزارع توسم الثوّار

وأجمع باقة للعرس

ليوم النصر أظفرها على الثوّار والأحرار

على قبر فدائي فداك الأمس بالنفس،

رواك من رحيق الثار.

(السابق: ٣٨٨)

التحريض الهمة في الشعر العاملي:

كانت قصائد العامليين تحريضية، كما كانت في خدمة الإنتفاضات وحركات التحرر الوطني، ففي شعر موسى شعيب مثلا، تطالعنا ثورة شاملة على الواقع العربي السيء والزمن العربي الرديء، فلم يعد الشاعر يكترث بالخطب الرنّانة والتصريحات، ولا يعير

اهتماما لمجلس الأمن وغيره من المنظمات التي تدّعي الحفاظ على حقوق الشعوب وحق تقرير المصير، والشاعر لا يؤمن إلاّ بمنطق القوة وبالكفاح المسلح لإستعادة الأرض السليبة، والشاعر هنا فدائي ومقاوم حمل رشاشه وانطلق لتحرير أرضه من براثن الصهيونية الغازية:

غنيتُ لِلألمِ الطّويلِ قَصائداً ... واليومُ الأملِ العريضِ أغُرِّدُ

وَطَني: جراحُك فِي الدروبِ منائرٌ ... ودِماءٌ شعبِك بسمةٌ تتورّدُ

في كلِّ مَجزرةٍ بأرضِك ثورةٌ ... في كلِّ مَلْحَمةٍ شموعٌ توقَدُ

إنّي فدائي كفرتُ بمجلسٍ ... لِلأمنِ يحكمُه دعي أوغَدُ

أنّي كفرتُ بِخُطبةٍ رَنّانةٍ ... تلقي وبالحُجج الطويلةِ تُسرَدُ

آمَنتُ بِالرّشاشِ نبضِ يراعتي ... ورَصاصُه صوتي النقي يزَغردُ

(موسى شعيب، ٢٠٠٤: ١٢٤)

وفي مواكب الجراح والألم يعزف الشاعر ألحان القهر والتمرّد، وينتفض كالملدوغ، فما زال الدم المطلول يصرخ في طلب الثأر، والشاعر يصرخ: ((لن ينام الثأر في صدري وإن طال مداه))، ولن يبقي الدم المطلول ينتظر على الأفق. ويدعو الشاعر إلي التشبّث بالأرض، والثبات عليها كالصخر، لأن النزوح عنها ذلّ وعار، فمن يزرع الحقول؟ ومن يجني المواسم؟ ومن يجمع الغلال على البيادر؟

هنا باقون كالأزل نشدّ جذورنا لجذورنا الأول

نقبّل شوك هذي الأرض بالمقل

هنا باقون مثل الصخر لن نبرح

وإن يهدم لنا بيت، وإن نشنق وإن نذبح،

فهذي الريح موّال لنا يصدح...

(السابق:١٨٢)

صار الجنوب اللبناني جنوبا للعرب، فبعد إقفال الجبهات العربية بوجه الفدائيين

والثوار والمقاومين، لم تبق إلاّ بوابة الجنوب مشرعة الأبواب لمقاتلة العدو الصهيوني، وغدا ساحة المواجهة الرئيسية، ومن الطبيعي أن يدفع المواطن الجنوبي، قبل غيره، ضريبة الدم وثمن المواجهة على أرضه،فعاني العاملي ويلات التهجير، بعد تدمير المنزل، وبعد أن جرّب العدو الصهيوني أحدث وسائل الفتك والدمار في القري والساحات العاملية. ومع ذلك احتضن جبل عامل بطولات المقاومة بصمود ومثابرة.

هكذا تجلّت المقاومة في نتاج بعض الشعراء العامليين. فهناك قصائد مجّدت المقاومة وغنّت للشهداء، وفخرت بالأمهات الثكالى يقفن إلى جانب البطولة، ويحوّلن المآتم إلى أعراس.

لقد تجلّت القضية الفلسطينية في القصائد الوطنية العاملية بشكل جلّي وملموس، فلم يكن الشاعر العاملي ينظر إلى تلك القضية كمسألة قائمة بذاتها، بل كان دائماً يرى فلسطين كالقلب من الجسد العروبي، بحيث ارتبطت أزمتها بسلسلة الأزمات العربية ككل. وعلى قاعدة هذا الفهم، وجد الشاعر العاملي أن ليس من مخرج للمشكلات الشائكة التي يعانيها العرب إلاّ بإزاحة الكابوس الصهيوني عن صدر فلسطين بالدرجة الأولى. كانت فلسطين توحي للشعراء العرب عامة، وللعامليين خصوصا، قصائد النضال والثأر، وكانوا يعتقدون أن قوّة العرب وإمكانياتهم البشرية والاقتصادية وغيرها ستحول دون أطماع اليهود في فلسطين، ولم يدر في خلد أحد منهم، ولا من غيرهم، أن ستكون لفلسطين هذه النتيجة السيئة. بعث هذا الأمر في نفوسهم شعورا حادّا بمرارة الخيبة، قياسا على ماضي العرب التليد في فرض الضيم، وأمجادهم الغابرة، التي كان الأخذ بالثأر من أولي واجباتهم، حتى غدا التفاخر بالأمجاد تعزية وتسلية عن الواقع المرير، وحافزرا على التحرير. فتغنّي شعراء عاملة في دفاعهم عن فلسطين والعروبة ببطولات: على بن أبي طالب عليه السلام، وخالد بن الوليد، وطارق بن زياد، وصلاح الدين...كتعبير نفسي لما يجيش في صدورهم من رغبات عارمة وأمان طاغية في أن يكون لأمتهم جيش قوي، يكون درعا حصينة تجاه الطامعين، وتمنّوا معارك فاصلة: كبدر، واليرموك، والقادسية، تنجلي عن طرد الغزاة المستعمرين. هذا التاريخ النضالي المشترك تجلّي في قصائد العامليين، وأثار قرائحهم، فاستنهضوا الهمم، وبعثوا الحماسة في صفوف الأمة. كما ضرب شعراء عاملة على الوتر الديني الحسّاس،

لتحريك المشاعر، والإلتفات إلى المقدسات التي عاث بها العدو فسادا، فصوّروا هول الجريمة التي أصابت القدس، وبينوا فظاعة إنتهاك مقدساتها الإسلامية والمسيحية، علّ العرب ينهضون من كبوتهم لاسترداد تلك المقدسات، فأنشد الشاعر العاملي إبراهيم شرارة قائلا:

في فلسطينَ لَئيمٌ مجرمٌ ... أعمَلَت كفّاهُ في القدسِ نهاناً

مهدُ عيسى وأماني مريمٍ ... وسَما المعراج تأبَى الاغتصابا

(ابراهيم عاملي، ٢٠٠٧: ١٥٨)

وهذا شاعر عاملي آخر، هو موسى الزين شرارة، يذكر بالمجازر الصهيونية بحقّ الإنسانية المظلومة في فلسطين:

والقدسُ والمسجدُ الأقصى الذي حُرقت ... بهِ المحاريبُ والآياتُ والسُّوَرُ

جريمةٌ سوفَ لا تنسى سَتَنقله ... عَبرَ العصورِ إلى أجيالنا السِّيرُ

(شرارة العاملي، ٢٠٠١: ٢٢٥)

أسهمت القصائد العالمية في زرع بذور الثورة والتمّرد على الواقع العربي الراهن، وشحذت الهمم والعزائم. وتدرّج الشعر من التنبيه والتحذير، فتعدّاه إلى الحثّ والاستنهاض، ثم بلغ أخيرا حدّ التمرّد وإعلان الثورة.

قضية وعد بلفور:

منذ البداية، كان واضحاً للشعراء العامليين أن ليس مهماً ما يخطط المستعمر الغربي، بقدر ما هومهم ما نفعله نحن في مواجهة هذه المخططات. فيوم دخل بلفور الشام نظم شاب دمشق مظاهرة ضده وما أن تسامع العامليون بهذا النبأ حتى تجاوبوا مع إخوانهم الدمشقيين وأعلنوا صرختهم في وجه هذا الزائر الثقيل المكروه وأوّل من سجل تلك الحادثة شعراً الشاعر الحوماني الذي قال:

إنْ تَدعْ لنصرتك العَربا ... فَالشّاميون هُم العَربُ

وَإذا حاولتَ لهما سبباً ... فَالشّامُ اليوم هي السببُ

سَلْ عَن بلفورَ وَقد رجفت ... رَجلاهُ بهَا لم يرتجف

هِزتـــــــه صـــــــفعة أســـــــاد ... قلـــــبُ الأســـــاد لهـــــا يجـــــف
زأروا فَحســـــــــبت زئيرهـــــــم ... في الكـــــون رعـــــوداً تَنقصـــــفُ
وأفانـــــــا مـــــــلء حـــــــقيبته ... شـــــيمٌ تســـــودُ بهـــــا الصـــــحفُ
يرجـــــــو تنظـــــــيم وفادتـــــــه ... مِـــــن قـــــوم بيديـــــه اغتصـــــبوا
بـــــــرزوا الهيجـــــــاءَ بقـــــــدمِهم ... بـــــأس تنـــــدك بـــــه الهضـــــبُ
في الشّـــــامِ ليـــــوثٌ رابضـــــةٌ ... شـــــجرُ المـــــران لهُـــــم أجـــــمُ
أبطـــــــالُ طـــــــولُ أناملُهـــــــا ... أســـــيافٌ تشـــــحذُها الهمـــــمُ
أن يخفـــــقَ قلـــــب مناجزَهـــــا ... فعليهـــــا قـــــد خفـــــقَ العلـــــمُ
نشـــــأوا والعـــــزّ فمـــــا مـــــرحمٌ ... وعلـــــى حُـــــبّ العليـــــا فُطمـــــوا
عـــــــربٌ لم تـــــــثن أعنتـــــــها ... في الحـــــربِ ولـــــيسَ لهـــــا الغلـــــبُ
السّـــــــمرُ مثقفـــــــةٌ شـــــــهدت ... بوفـــــاهم والبـــــيضُ والغضـــــبُ
لفلســـــــطينِ في الشـــــامِ يـــــدٌ ... لا يغفـــــــلُ عنـــــــها لبنـــــــانُ
فَـــــرق حفـــــظ الأوطـــــان لهـــــم ... ديـــــنٌ وَهواهـــــا ايمـــــانُ
إن فرقهـــــا بلفـــــورٌ فقـــــد ... وحـــــدُها قـــــبلا عـــــدنانُ
هَتفـــــوا والحـــــربُ تهـــــددهم ... لنمـــــت وَلتحيـــــا الأوطـــــانُ
نَهضـــــوا للمـــــوتِ بأفئـــــدةٍ ... وصـــــالُ العليـــــاء لهـــــا أدبُ
وعـــــزائمٌ شـــــدت أزر المجـــــد ... بـــــها آبـــــاؤُهم النجـــــبُ

(الحوماني، السابق: ٢١٨)

وعندما بدأت الممارسات الآيلة إلى تنفيذ وعد بلفور، واكب الشعراء العامليون الأحداث.. يقوم الانكليز باعدام عدد من المناصلين عام ١٩٣٠م، وهم الرعيل الأول من شهداء فلسطين، فيري محمدرضا شرف الدين أنه:

فِـــي كـــلّ يـــومٍ للعروبـــةِ مشـــهدٌ ... يـــبني بـــأن العِـــزَّ مـــلء إهابهـــا

(شرف الدين، ١٩٩٢: ٢٢٠)

وتتالت الاحداث، فشارك العامليون قولاً وفعلاً في النشاط؛ فهذا، على سبيل المثال،

الشيخ على مهدي شمس الدين، يشارك ((نادي أنصار الفضيلة)) الفلسطيني، سعيه لجمع الكلمة والتوحيد ونبذ الخلافات التي يحاول الاستعمار غرسها ومثله فعل الشيخ أمين شرارة.

في الفلسطينيات العاملية عين تري المصائب فتأسي أسي وجدانياً عميقاً ووعي يدفع اليد لتشير إلى مواطن الداء. وإننا نقرأ تمثيلاً بعض النماذج. يقول فؤاد جرداق عام ١٩٤٨م، آملاً بالنصر محرضاً عليه:

قُـــل لِـــإبنِ صـــهيون اللئـــيمِ بأنّنـــا ... عـــربٌ ســـنقرن وعـــدَه بوعيـــدِه

وَتـــدوسُ معطســـه الكمـــاةُ وتـــزدري ... شـــوسُ الابـــاةِ بمالِـــه ونقـــودُه

وطـــنُ العروبـــةِ قـــد مشـــت آســـادُه ... لتـــــدق رأس عـــــدوّه وحســـــودِه

(فؤاد جرداق، ١٩٤٨: ١٨٨)

ويخيب الامل، فيري الشاعر العاملي الشيخ على شمس الدين طبيعة مشاركة العرب والمسلمين إزاء عظم المصائب، فيسخر من هذه المشاركة ويقول:

والمســـلمونَ لـــيسَ مِـــن واجـــبِهم ... إلا القيـــامُ بصـــلاةِ الغائـــبِ

(شمس‌الدين، على، السابق: ١١٥)

ولا يلبث الشاعر أن يجدد موطن الداء، فيقول:

مَـــا ضـــرّنا أجـــنبي في طماعتِـــه ... ولا جِـــني وعـــدَ بلفـــورُ علـــى العـــربِ

وإنمـــا.. مَـــن بـــاع أثمـــنَ أرضَ اليهـــودِ وَمَـــنْ ... رَمـــي الـــوري بالـــدّواهي الـــدهم عـــن كثـــبِ

(السابق)

ويرى محمد علي الحوماني، في هؤلاء القادة، عصبة عاصت في البلاد فساداً، ولذا تجب عليهم ورميهم رمي النواة:

تَولـــوا فعاثـــت بِهـــا عصـــبةٌ ... كبـــارُ النفـــوسِ صـــغارُ الهمـــمِ

مـــتى يفصـــحُ الشّـــعبُ عـــن حقِّـــه ... فـــيلفظهم مِنـــهُ لفـــظُ العجـــمِ

(الحوماني، السابق: ١٢٢)

ويرى الشيخ ابراهيم شرارة، في نشيده ((نحن عرب)) ان مغتصبي فلسطين ذئاب

ولكنهم سوف يجلون أخيراً. وهذا ما يفيده التاريخ، ومما يقوله:

.. وكمـــا ذلّـــت فرنسـا وَجلـــت فســـنجلي عـــن فلســـطينَ ذئابـــاً

(شرارة، ابراهيم، ١٩٥٢: ٨٨)

اما الشاعر بولس سلامة فقد وضع ملحمة كبيرة اسماها "فلسطين وأخواتها" تحدث فيها عن الشعب الفلسطيني وما أحاط به من مؤامرات غادرة وما عاناه على يد السلطات الاستعمارية البغيضة والصهيونية الحاقدة من تنكيل وبطش وإرهاب ووضع سليمان ظاهر ديواناً كاملا أسماه "فلسطينيات" وهي مجموعة قصائد نظمها الشاعر ابتداء من وعد بلفور حتى عام ١٩٥١م وهو عام ما بعد إحتلال فلسطين وقد تحدث فيها عن وعد بلفور بقصيدة نظمها عام ١٩٢٩م ونشرها في جريدة المقتبس الدمشقية وعن "الانتداب" وعن المؤتمر الاسلامي الذي عقد في القدس في "ذكري المعراج" ١٩٣١م وقصيدة عن الشهيد سعيد الحمصي ١٩٣٦م وقصيدة بمناسبة المؤتمر العربي الذي عقده رجال من سوريا وفلسطين ولبنان والعراق١٩٣٧م في بلودان وقصيدة بعنوان "مهلا فلسطين" و"تهنئة للحاج أمين الحسيني بمناسبة فراره من السلطات البريطانية سنة ١٩٣٧م وقصيدة بعنوان "أبناء صهيون"١٩٣٨م وقصيدة بعنوان" بريطانيا وفلسطين" عام ١٩٣٨م، و"فلسطين والاسكندرون" عام ١٩٣٨م و.....

ويقول في إحدى هذه القصائد:

مَهـــلاً فلســـطينُ لا تأســـى فَللغـــيرِ مهمـــا دَجـــا ليلُهـــا صـــبحٌ مِـــن الظفـــرِ

قـــد ســـاورتك صـــروف الـــدهر مـــن قـــدم فَـــما مَحـــت مِـــن عـــينَ ولا أثـــر

كـــلا ولا أخلفـــت يومـــاً نوائبُهـــا ديباجـــة لـــك مـــلء القلـــبِ والبصـــرِ

مـــا خضـــت في غمـــرة الا نجـــوت علـــى ســـفائن الـــوحي لا الالـــواح والدســـر

(سلامة، ١٩٥٤: ٢٦-٢٧)

الخاتمة:

من كل ما تقدم حول قضية فلسطين في الشعر العمالي نستنتج:

- فقدت الموضوعات التقليدية، كالمديح والرثاء والفخر... في الشعر العاملي مكانتها بالتدريج، كنتيجة طبيعية لعدم استجابتها لحاجات المجتمع المتطوّر. وبرزت

موضوعات جديدة،أهمّها نمو العشور القومي، وتأثر المثقفين بالمفاهيم والقيم الوطنية والقومية والإسلامية.

- شغلت القضايا الوطنية والقومية والإسلامية حيزا كبيرا في كتاب الشعر العاملي، وكان لشعراء عاملة وقفات مميزه في معالجة هذه القضايا. هكذا سيطرت القضايا القومية على موضوعات الشعر العاملي، لأنهم كانوا عربا خلّصا. وكذلك كان شعرهم عربيا خالصا.
- انضمّ المثقّفون العامليون إلى عدد من الأحزاب السياسية والتنظيمات الوطنية والقومية، نتيجة سخطهم على الواقع السيء المعاش، وانخرطوا في صفوف المقاومة الفلسطينية، تعبيرا عن مشاركتهم وتضامنهم مع إخوانهم الفلسطينيين، وقدّموا الشهداء، وتحمّلوا ردّات الفعل الصهيونية تلبية للواجب الوطني والقومي والإسلامي. وأدّت هذه الأسباب مجتمعة إلى غزارة الشعر السياسي بمضمونه التحريضي المباشر الذي يدعو إلى تغيير الأوضاع والثورة على الواقع المؤلم، أو بالأسلوب الساخر الإنتقادي والفكاهي الذي ترك أثرا عظيما في النفوس.
- احتلّت القضية الفلسطينية في الشعر العاملي مكانة مميزة، ولهذا لم نر شاعرا لم يتحدث عنها،ولم نر أديبا لم يكتب عن مأساتها ومأساة شعبها. أن القضية الفلسطينية احتلّت حيزا كبيرا ومهما في نتاج الشعراء العامليين، فمن مطلع هذا القرن إلى يومنا هذا، يندر أن تقرأ لشاعر أو كاتب عاملي إلاّ وتقع من قراءتك على ذلك الهمّ الذي يشغل وجدانه تجاه المأساة التي ألّمت بالشعب الفلسطيني، وبالمقابل تجاه الخطر الصهيوني الذي يهدّد وجوه الأمة العربية بأسرها. وهكذا التزم الشعر العاملي قضايا الأمة العربية إلى أقصي الحدود، لأن مجتمعهم بحاجة إلي استنهاض الهمم، وإحياء القيم العربية والإسلامية الأصيلة، وكان الشعر من وسائل التعبير المؤثّرة التي لا يستهان بدورها في معركتهم.
- كما تأثّر العامليون بالاحداث العربية الأخرى، وعاشوا قضاياها، وحملوا همومها، فهم مع شعب فلسطين ، ومع ثورة الجزائر، ومع ثورة اليمين ضد المستعمر، ومع مصر وشعبها ضد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ م ، ومع الوحدة

المصرية – السورية عام ١٩٥٨، ومع ثورة العراق في العام نفسه، ومع العرب جميعا في حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣.

قائمة المصادر و المراجع

١. الأمين، عبدالمطلب، ديوان، دارالتعارف، لاتا.

٢. جرداق، فؤاد، ديوان، لانا، ١٩٤٨م.

٣. الحوماني، محمد علي، ديوان، بيروت، ١٩٥٠م.

٤. زرافط، عبدالمجيد، مجلة العرفان، المجلد الرابع و السبعون، ١٤٠٦ش، الجزء ٥ و ٦، ص١٣٧-١٤٨

٥. الزين شرارة، موسى، ديوان، دارالكتاب اللبناني، صيداء، ١٩٩٠م.

٦. سكنة العبدالله ، نهاية الصدى، ج١، دارالكتاب اللبناني ، لاتا

٧. سلامة، بولس، الفلسطينيات، المكتبة العصرية صيداء، بيروت، ١٩٥٤م.

٨. شرف الدين، محمدرضا، المطبعة العصرية، صيداء، ١٩٩٢م.

٩. شعيب العاملي، موسى، الحماسيات في النهضة العربية: العرفان، ج١، صيداء، ٢٠٠٤م.

١٠. شمس الدين، الشيخ على مهدي، دارالصادق، بيروت، ١٩٨٠م.

١١. شمس‌الدين، محمد، ديوان، المطبعة العصرية، بيروت، ١٩٩٦م.

١٢. شمس‌الدين، محمدحسين، ديوان، دارالمعرفة، بيروت، ١٩٦٥م.

١٣. العاملي، ابراهيم شرارة، ديوان الحماسيات، دارالتعارف، بيروت، ١٩٥٢م.

١٤. العاملي، ابراهيم شرارة، ديوان، بيروت، ٢٠٠١م.

١٥. مجلة العرفان، العددان١و٢، المجلد ٧٩

١٦. مروة، نجيب، ديوان، حايك وكمال، بيروت، ٢٠٠١م.